منطلقات الدكتور "عبد الرزاق قسوم":

قراءة لكتاب "مدارس الفكر العربي الإسلامي المعاصر:

تأملات في المنطلق ... والمصب"

د. عياد أحمد

جامعة تلمسان.

أولا: عبد الرزاق قسوم: المفكر والشخص:

ولدالدكتور "عبد الرزاق قسوم" سنة 1933 ب"المغير" بولاية الوادي ، في عائلة دينية تشتغل بالفلاحة والتجارة، انتقل في دراسته الابتدائية من زاوية "الصايم سيدي امبارك" إلى المدرسة الفرنسية ثم إلى المدرسة العربية الحرة التي كانت تشرف عليها جمعية العلماء المسلمين، فانتهى تعليمه الابتدائي بتمكنه من حفظ القرآن ونيل شهادة التعليم الابتدائي باللغة الفرنسية.

ثم سنة 1949 انتقل الدكتور إلى قسنطينة فدرس عند مجموعة من الأساتذة أمثال "أحمد حماني" و "عبد الرحمان شيبان" و"أحمد رضا حوحو" وغيرهم، فنال بعدها شهادة اهلية، ثم انتقل إلى جامع الزيتونة، وبعد اندلاع ثورة التحرير تعذر في حقه الانتقال للدراسة في المشرق، فعاد إلى الجزائر.

بعد عودته من تونس رجع إلى " المغير" –مسقط رأسه- للتعليم بها، ثم انتقل إلى الجزائر العاصمة أين تحصل على منصب معلم بالمدرسة السنية، ثم واصل نشاطه الثوري تحت غطاء جمعية العلماء المسلمين.

بعد الاستقلال استأنف دراسته فتحصل على شهادة اللسانس في الترجمة سنة 1966، ثم تحصل على شهادة اللسانس في الفلسفة وكذا دبلوم الدراسات العليا في الفلسفة، لينتقل بعدها إلى مصر ليتحصل على شهادة ماجستير في الفلسفة من جامعة القاهرة وذلك سنة 1975، لينتقل أخيرا إلى فرنسا وبالضبط إلى جامعة السوربون ليتحصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة.

بعد عودته إلى الجزائر وانهاء دراسته، اشتغل كأستاذ بقسم الفلسفة، كما كان أمينا عاما للمترجمين الجزائريين، و نائب عميد المعهد الإسلامي بمسجد باريس سنة 1986، بعدها عين كمدير للمعهد الوطني لأصول الدين بالجزائر العاصمة ومديرا للبحث العلمي في العلوم الاجتماعية بجامعة الجزائر. وبعد اعادة تأسيس جمعية العلماء المسلمين اصبح عضوا فيها، وبعد وفاة الشيخ "عبد الرحمان شيبان" استلم رئاسة الجمعية.

ويعتبر الدكتور "عبد الرزاق قسوم" مفكر جزائري غزير الانتاج كثير العطاء الفكري، بحيث له الكثير من الأعمال الفكرية والمقالات المنشورة في الكثير من المجلات الوطنية والدولية، كما ان له الكثير من التقديمات للكثير من الكتب، ينضاف إلى ذلك قيامه للعديد من الترجمات من العربية إلى الفرنسية، وله العديد من المؤلفات لعل الرائد منها ما يلي:

- مفهوم الزمن في فلسفة ابي الوليد ابن رشد.

- مدارس الفكر العربي الإسلامي المعاصر: تأملات في المنطلق ... والمصب.

- مفهوم الزمن في الفكر العربي المعاصر. (باللغة الفرنسية).

- فلسفة التاريخمن منظور إسلامي. (قراءة إسلامية معاصرة).

- تأملات في معاناة الذات.

ثانيا: تعريف أولي لكتاب: "مدارس الفكر العربي الإسلامي المعاصر":

الكتاب من خلال عنوانه: " مدارس الفكر العربي الإسلامي المعاصر" يحيل على درجة عالية من الالمام بالمادة لدى صاحبه، إذ يبيت الجاهل بالفكر العربي والإسلامي المعاصر بشتى تياراته، أو المقصر في معرفته، عاجزا عن تصنيف هذا الفكر إلى مدارس وتوجهات، فعبارة "مدارس الفكر العربي الإسلامي المعاصر" توحي بالمعرفة الواسعة والشاملة للدكتور "قسوم"بكل ما كتب فيما يسمى بالفكر العربي المعاصر، ينضاف إلى ذلك أن عبارة "تأملات في المنطلق والمصب" – وهي ملحق العنوان- تحيل ليس إلى المعرفة الواسعة والشاملة بالموضوع فحسب، بل كذلك تحيل إلى المعرفة العميقة والدقيقة، والقراءة المؤسسة على مرجعيات فكرية وفلسفية تمكن من استنطاق النصوص تارة ومحاكمتها تارة أخرى.

فالكتاب من خلال واجهته السطحية يعكس نصوص الفكر العربي المعاصر ومادته، لكن من حيث عمقه وباطنه إنما يعكس فكر الدكتور "عبد الرزاق قسوم" ومؤهلاته الفلسفية: مؤهلات تمكن صاحبها من محاصرة الموضوع، محاصرة تمكن من تقليبه على شتى الأوجه حتى تتبين مداليله ومحامله، وهي تلك علاقة القارئ بنصه، لا يأتي معنى النص وإنما يكون معنى عن النص.

فالكتاب وإن كان في ظاهره حديث عن أفكار ومعاني "خالد محمد خالد" أو د. "محمد عمارة"، عن د. "حسن حنفي" أو د. "محمد عابد الجابري" أو "محمود المسعدي"، عن د. "فؤاد زكرياء" أو د. "محمد أركون" أو " هشام جعيط" – وناهيك عما في هذه السجلات الفكرية من أفكار ومعالجات فلسفية لآن الأمة العربية وتراثها وغدها- فهو – الكتاب- في باطنه تعبير عن كيف تهيأ هذا الذهن – ذهن الدكتور قسوم- لاستقبال هذه النصوص، وانشغاله بمتابعة المسار الفكري والاستدلالي لكل فكر وما انتهى إليه من أحكام ومعالجات، وما انطلق منه من مقدمات ومنطلقات، وما استخدم من مفاهيم ومداليل، ثم بعد ذلك وبعد الفهم الدقيق والعميق لها، يحاول أن

يصنفها إلى جبهات فكرية، قارئا لها بمنطق ما هو كفاحي فيها، حيث يعمد إلى تحديد ما لم يصرح فيها مباشرة، وهو بداياتها وخلفياتها أو ما أسماه " المنطلق"، وإلى تحديد ما كانت ترافع عنه وتهدف إليه وهو ما أسماه "المصب".

كتاب "مدارس الفكر العربي الاسلامي المعاصر" يقع فيما ينيف عن 280 صفحة، طبع في " دار عالم الكتب" للطباعة والنشر والتوزيع بالرياض، لأول مرة سنة 1997 ميلادية الموافق لسنة 1418 بالتاريخ الهجري.

كما يضم مقدمة يثير فيها التساؤل المحوري للكتاب، وأربعة أبواب وخاتمة وقائمة للمراجع وملحق لتثبيت وكشف المصطلحات. فأما الباب الأول فكان بعنوان " منهجية البحث في الفكر العربي الاسلامي المعاصر" ، وكانت له أربعة فصول: الفصل الأول حول إشكالية المحتوى والمنهج والمفاهيم، والفصل الثاني حول مصادر الفكر العربي الاسلامي بين المرجعية والنموذجية، والفصل الثالث حول مراحل الفكر العربي الاسلامي أو إشكالية الزمن، أما الفصل الرابع فهو حول المدارس الفكرية العربية الاسلامية بين الخطاب الديني والمفهوم العقلي.

أما الباب الثاني فكان بعنوان " مدرسة المنطلق العقلي والمصب الدين" بدءا بالحديث عن " خالد محمد خالد" في الفصل الأول، والدكتور "محمد عمارة " في الفصل الثاني، و "مصطفى محمود" في الفصل الثالث، أما الفصل الرابع فخصصه للحديث عن الخصائص العامة والمشتركة لهذه المدرسة.

أما الباب الثالث فكان حديثا عن ما أسماه "مدرسة المنطلق الديني والمصب العقلي"، بدءا بالحديث عن الخصائص العامة لهذه المدرسة في الفصل الأول، والحديث عن الدكتور "حسن حنفي" في الفصل الثاني، والحديث عن الدكتور "محمد عابد الجابري" في الفصل الثالث، وعن "محمود المسعدي" في الفصل الرابع.

أما الباب الرابع والأخير من الكتاب فكان حديثا عن ما أسماه "مدرسة المنطلق العقلي والمصب اللاديني"، بالحديث أولا عن "فؤاد زكرياء" في الفصل الأول، والدكتور "محمد أركون" في الفصل الثاني، وعن "هشام جعيط" في الفصل الرابع.

فكتاب "مدارس الفكر العربي الاسلامي" يحاول الاجابة عن سؤال" فكرنا كيف نقرأه؟ أي أن الفكر العربي الاسلامي المعاصر كيف يمكن قراءته؟ وكإجابة عن هذا السؤال نجد في الفصل الرابع من الباب الأول لهذا الكتاب دعوة من الدكتور "قسوم" إلى ضرورة قراءة الفكر العربي الاسلامي المعاصر على ضوء اشكالية الديني والعقلي، وكأن الأمس أشبه باليوم، إشكالية الديني والعقلي في شكلها الماضي هي إشكالية العقل والنقل ، فهل الفكر العربي الاسلامي المعاصر هو مجرد علم كلام معاصر؟ أما ما تبقى من أبوابوفصول للكتاب فإنما امتحان لهذه الرؤية وتطبيقات لها.

ثالثا: الكتاب من حيث أنه درس فلسفي:

كتاب " مدارس الفكر العربي الاسلامي المعاصر" بعد تلقي مادته يمكن تعاطيه على أنه درس فلسفي يؤتي قارئه الكثير من العمليات التي يستقيم بها الفعل الفلسفي، ولعل من أمهات هذه العمليات والتي نجد لها حضورا قويا في هذا الكتاب وتتسلل إلينا كدرس فلسفي هي عملية التصنيف، والتي هي في الأصل عملية فلسفية منطقية عقلية، على أساسها نتعامل مع الوقائع العينية والأخرى الذهنية، حتى وكأنه يستعصى في حقنا التعامل مع المعطى إلا بعد تصنيفه، أي وضعه ضمن صنف معين حتى يتميز وضعه بين سائر المعطيات.

وهذا ما يؤكد الضرورة العقلية والمنطقية لعملية "التصنيف" فهي فعالية أساسية في حياتنا العلمية والعملية، بيد أن أي اعوجاج على مستوى هذه العملية يشفع باعوجاج مماثل على مستوى من يطلبها من علم أو عمل، وأي استقامة واستواء لهذه العملية ينعكس بنفس الدرجة على مستوى العلم والعمل، ولما كان الكتاب تنظير وتطبيق لعملية التصنيف، فإنما تتأتاه أهميته من هذا.

وقد قام الدرس الفلسفي لعملية التصنيف في كتاب "مدارس الفكر العربي الاسلامي المعاصر" على أربعة دروس فرعية وهي:

أولا: تحديد وضبط المعطيات.

ثانيا: مسألة التصنيف وما يلحق بها من أسس وصعوبات.

ثالثا: عملية التصنيف وتحديد الفئات.

رابعا: تطبيقات لعملية التصنيف.

وهذه الدروس الفرعية تحضر في هذا الكتاب كمراحل وأركان لعملية التصنيف.

ا- تحديد وضبط المعطيات:

عمل يحمل عنوان " مدارس الفكر العربي الاسلامي المعاصر" لا محالة عندما يغيب دروسه يبدأ مباشرة في سرد ما اعتقده أصنافا ومدارس لهذا الفكر فيكون عن اثر ذلك متسلطا على القارئ ومقدما له معالجات وقعت في ذهن الكاتب كنتائج لم يتحمل عناء نقل طريقة الاستنتاج للقارئ، لكن على النقيض من ذلك، نجد الدكتور " قسوم" ينقل ما اعتقده مدارس وأصناف للفكر العربي والاسلامي المعاصر، لكن ليس بشكل مباشر يستخف فيه بالقارئ، بل قبل ذلك يرجع إلى الوراء محاولا تحديد وضبط هذا المعطى "الفكر العربي الاسلامي المعاصر" وكأن لسان حاله يقول أنه قبل الحديث عن مدارس هذا الفكر وجعلها في ثلاثة قد يضيف إليه البعض رابعا وخامسا، أو قد ينقص منها بعض آخر، قبل ذلك كله لابد من طرح السؤال: ما هو " الفكر العربي الاسلامي المعاصر"؟ فلا تصنيف إلا بتحديد ما يراد تصنيفه.

فجاءت فصول الباب الأول تقريبا كلها منشغلة بتحديد وضبط موضوع التصنيف "الفكر العربي الاسلامي المعاصر"، ضبطا وتحديدا تم عند الدكتور "قسوم" على المستويات التالية:

- ما معنى أنه عربي؟ أنه إسلامي؟ وأنه معاصر؟

- ماهي مناهجه ومحتوياته ومفاهيمه؟

- ماهي مصادره وخلفياته؟

- ما هي مراحل تكوينه؟

وبهذه الأسئلة يضعنا الكتاب أمام أربع مستويات للحديث عن هوية الفكر العربي الاسلامي المعاصر:

المستوى الأول: ما يمكن أن نسميه بالهوية الخارجية والتي تتحدد من خلال الأسماء وما تحمل من صفيات وتميزات للمسمى: عربي/ إسلامي/ معاصر، إذ يقول: " ماهو التعريف الدقيق للفكر الاسلامي المعاصر من حيث المنهج ومن حيث المحتوى؟ هل يمكن اعتبار ما يصدر في فكرنا العربي الاسلامي بالإنتاج الإبداعي الذي يرقى إلى مستوى الفكر المنهجي المنظم الذي يؤهله إلى التنافس الفلسفي مقارنة بالفلسفات الأخرى؟"(1).

المستوى الثاني: وهو ما نسميه الهوية الداخلية وفيها تجاوز الظاهر أو الاسم أو الصفة إلى العمق والبنية والمحتوى: ماذا يحتوي؟ ماهي مناهجه؟ ماهي مفاهيمه؟ إذ يقول: " نحن إذن نختلف في المنهج والمفهوم والمحتوى، ولسنا ندري إن كان المحتوى المتضمن إنتاجنا الاسلامي يصح أن يعكس مدلوله مصطلح فكر عربي أم فكر إسلامي، أم هما معا، فكر عربي إسلامي مع اضافة المعاصرة كمعطى زمني"(2).

المستوى الثالث: وهو ما نسميه بالهوية التاريخية، أي ضبط المعطى بالرجوع إلى ماضيه وكيف تشكل وتطور، وإمكانية قراءته على أنه شكل متطور لما كان عليه في ماضيه، إذ نجد في الكتاب حديث عن مصادر ومرجعيات الفكر العربي الاسلامي المعاصر، إذ يقول: " ينبغي التنبيه في البداية إلى أن المقصود بالمصادر هنا ليس المصادر التي يعتمد عليها مفكر ما لشرح الاسلام، وإنما المقصود – تدقيقا- المصادر التي انتجت مختلف الاتجاهات "الاسلامية"، فالفكر العربي الاسلامي بهذا الاعتبار يمكن إرجاعه إلى مصدرين أساسيين أخذ منهما أهم خصائصه ومقوماته وهما: المرجعية النظرية والنموذجية التطبيقية"(3).

المستوى الرابع: وهو ما نسميه بالهوية التكوينية، فيها احتكام لعامل الزمن والتاريخ وحديث عن مراحل الفكر العربي الاسلامي المعاصر، إذ يقول: " ما يزال الفكر العربي الاسلامي يصطدم في دراسته بعقبة منهجية أخرى هي عقبة تحديد الفواصل الزمنية، والمفكرون المسلمون

في هذا المجال اختلفوا ولا يزالون مختلفين فهم لم يجمعوا بعد على لحظات زمنية تتخذ منطلقا لمراحل حياتهم الفكرية " (4).

ب- مسألة التصنيف: الصعوبات والأسس:

لعل الدرس الفلسفي في هذا الكتاب فيما يخص عملية "التصنيف" يمر بهذا الشكل: متى وجدنا صعوبة في تحديد وضبط المعطيات صعب في حقنا تصنيفها، فالأمر كذلك بالنسبة للفكر العربي الاسلامي المعاصر، إذ كل ما طرحناه من أسئلة تتعلق بهويته تحملنا على الاختلاف والتشيع في الإجابات أكثر من الاتفاق والاتحاد فيها، فنحن نختلف فيما يتعلق بتسميته هذا الفكر ما إذا كان عربيا أو إسلاميا، ولعل من أكبر تجليات هذا الاختلاف "نقد العقل الاسلامي" (5)، و"نقد العقل العربي"(6)، نختلف فيما يتعلق بمداخله ومنهجيته: فهؤلاء البنيويون، وأولئك الماركسون، وطرف ثالث وجودي ورابع ظواهري وخامس شخصاني وغيرها، نختلف كذلك فيما يتعلق بأصوله وخلفياته: أصول أشعرية تارة وأخرى اعتزالية تارة أخرى.

فهذا الاختلاف والصعوبة في تحديد هوية الفكر العربي الاسلامي المعاصر هي ما تجعل عملية القراءة عملية عصية، وعملية التصنيف أكثر صعوبة، والأسلم – حسب هذا الدرس الفلسفي- هو أنه مع هذا الحذر وهذه الصعوبة ينبغي أن نرصد أساسا نضعه كمسطرة وأساس للتصنيف، شرط أن يستقيم هذا الأساس بحيث نجده في جميع جزئيات المعطى: إما حضورا أو خلوا، وأنه متى استقام هذا الأساس استقامت عملية التصنيف، فكان هذا الأساس هو الديني والعقلي في هذه السجلات الفكرية، أي الخطاب الديني والخطاب العقلي ومدى وكيفية حضورهما في المشروع الفكري، فينتظم الفكر العربي الاسلامي المعاصر عل شكل مجموعتين أو صنفين أساسيين: ما وظف الخطاب الدني كصنف أول، وما وظف الخطاب العقلي كصنف ثاني.

ج- التصنيف وتحديد الفئات:

على أساس حضور الخطاب الديني أو الخطاب العقلي في المشروع الفكري العربي الاسلامي المعاصر، يتم رصد صنفين: ماهو ديني وما هو عقلاني.

غير أن اساس التصنيف ليس حضور هذا أو حضور ذاك، وانما الشكل الذي يحضر به الخطاب الديني: كخلفية ومنطلق أم كمرفأ ومصب؟ وكذلك بالنسبة للخطاب العقلي كيف يحضر في المشروع الفكري؟ كمنطلق ام كمصب، فكانت الفئات ثلاثة: ما انطلق من العقل متخذا الدين كمصب، وما انطلق من الدين متخذا العقل كمصب، وما انطلق من العقل متخذا من اللادين كمصب، " ومن هنا جاءت محاولتنا في شكل معادلة فكرية نقترحها عساها تحظى لموافقة القارئ، وتتمثل في الشكل التالي:

1- مدرسة المنطلق العقلي والمصب الديني.

2- مدرسة المنطلق الديني والمصب العقلي.

3- مدرسة المنطلق العقلي والمصب اللاديني أو العلماني"(7).

د- تطبيقات عملية التصنيف:

بعد تحديد أساس التصنيف وتحديد الفئات: المنطلق العقلي والمصب الديني، المنطلق الديني والمصب العقلي، المنطلق العقلي والمصب العلماني، يستدعي بعضا من مشاريع الفكر العربي الاسلامي المعاصر ويتخذها كنماذج لمحاكمة عملية التصنيف التي قام بها.

*- فمع مدرسة "المنطلق العقلي والمصب الديني" يأخذ مشروع "خالد محمد خالد" كنموذج فيجعل منطلقاته عقلية ومصباته أو إرساءاته دينية، "فإن خالد محمد خالد مفكر نذر نفسه من أول يوم لتقديم الخطاب الاسلامي العقلاني الواضح المعالم، الموضوعي المحتوى، المنطقي المنهج، المقنع الأحكام" (8).

وكنموذج ثاني عن هذه المدرسة يأخذ الدكتور "محمد عمارة" حيث يقول عنه مشيرا إلى منطلقاته العقلية ومصباته الدينية: "فيلسوف في تكوينه ومنهجه، عقلاني حيث يكتب ويفكر، وحيث يتحدث إلى الناس، يخضع كل ما يصادفه للمنهج العقلي، فما استقام وهذا المنهج قبله، وما تعارض معه رفضه"(9).

وكنموذج ثالث عن هذه المدرسة يستحضر المشروع الفكري للدكتور "مصطفى محمود" الذي اعتبره لغزا فكريا جمع بين الطب والأدب والفلسفة والدين، فهو إما "طبيب عقلنه الدين" أو "متدين علمنه الطب"(10)، ولعل أساس الحاقه بهذه المدرسة عند المؤلف هو "أنه حاول أن يتحرر في بداية بحثه من كل فكر مسبق، فتبنى منهجا يسوي بين العقل والدين"(11).

*- أما مع مدرسة "المنطلق الديني والمصب العقلي"، ما يفتأ المؤلف أن يهرع إلى المشروع الفكري للدكتور "حسن حنفي" آخذا اياه كنموذج عن هذه المدرسة، وهو صاحب مشروع "التراث والتجديد"، فقد صنفه المؤلف ضمن "مدرسة المنطلق الديني والمصب العقلي وحجتنا أن أصحاب هذه المدرسة إنما ينطلقون من الدين ونصوصه وقضاياه في منطلقهم المنهجي، ليرسوا أخيرا في مرفأ عقلي فلسفي خالص"(12).

وكنموذج ثاني عن هذه المدرسة يدرج المؤلف مشروع المفكر المغربي "محمد عابد الجابري" صاحب مشروع "نقد العقل العربي" الذي "يدعو إلى تجديد التراث العربي، حينما يؤكد على أن تحديد عبارة العقل العربي تتم وفق المنظور العلمي الذي تتبناه النظرية العلمية المعاصرة للعقل"(13).

وكنموذج ثالث عن هذه المدرسة يستحضر المؤلف مشروع الأديب التونسي "محمود المسعدي" الذي هو "مع المنطلق الديني الذي يبعث فينا روحية مبدعة وطاقات معنوية خلاقة، تنعكس على إرادتنا في البناء والابداع، ولكنه يختار المصب العقلي الذي يحررنا من أن نتحول إلى تحف في متحف الماضي مهما كان جميلا"(14).

*- أما مع مدرسة "المنطلق العقلي والمصب العلماني" فأول نموذج فكري يشير إليه هو مشروع الدكتور "فؤاد زكرياء" الذي يقول عنه: "مؤمن بالعقل إيمانا لا حدود له يثق في مقدماته، ويسلم بكل نتائجه، وهو كافر بسوى العقل مهما كانت درجة نصيته .... فالطريقة العقلية عنده هي الأساس والأصل، والمنهج العلمي الناتج عن الطريقة العقلية هو وحده الموصل إلى اليقين"(15).

ثم كنموذج ثاني يأخذ بالمشروع الفكري للدكتور "محمد أركون" والذي يقول عنه: "تكون في الفكر الاسلامي المعاصر اليوم، ما أصبح يعرف بالظاهرة الفكرية الأركونية، هذه الظاهرة التي صارت – بما تحتله من حيز في فضاء ثقافتنا- تفرض نفسها كحقيقة فلسفية، لا يمكن لأي دارس تجاوزها أو القفز عليها، ومصدر أهميتها كفلسفة تكمن في كونها معقدة العناصر، متعددة الفصول، واسعة الانتشار، وهو ما يضاعف من صعوبة مهمة الدارس في محاولة الاحاطة بها، أو ملاحقة سيرورتها، ورصد محدداتها"(16).

أما النموذج الثالث عن هذه المدرسة فيخصصه للمفكر التونسي "هشام جعيط" الذي يقول عنه أنه "المهندس الحضاري والمفكر العقلاني، والفيلسوف المحلل، والمؤرخ الناقد، والاجتماعي السيكولوجي، أنه صانع المدرسة الفكرية ذات المنطلق العقلاني والمصير أو المصب العلماني اللاديني"(17).

رابعا: منطلقات "قسوم":

لايستطيع التميز بين المعادن النفيسة، إلا العارف بها أدق المعرفة، فلا يمكن لأحد أن يضع يده على موطن العقل وموطن الدين في المشاريع الفكرية العربية الاسلامية المعاصرة، إلا العارف بالعقل ومفاهيمه واستنتاجاته وكيفية اشتغاله، والعارف بالدين ونصوصه واستنطاقاته، هو كذلك شأن الدكتور "عبد الرزاق قسوم" ما كان يتسنى له أن يعرف الجوانب العقلية والأخرى الدينية في هذه السجلات الفكرية، ما لم يكن على دراية تامة بالعقل ومناهجه وأسسه الفلسفية، وبالدين نصا وفهما، والمعرفة بالعقل وبالدين هي المنطلقات الأساسية للدكتور "قسوم" ومادته في عملية تصنيف وقراءة هذه المشاريع.

ا- المنطلق الديني:

يحضر الدكتور "قسوم" في كتابه "مدارس الفكر العربي الاسلامي المعاصر" كقارئ وناقد لهذه المشاريع الفكرية، بيد أن هذا العقل لما يقرأ يتسلح بمسطرة دينية كمركب ذهني أساسي، على أساسها فيئ ما قرأ، بطريقة تميز الديني من هذه المشاريع الفكرية عن غير الديني فيها، تميز في هذه المشاريع الفكرية متى يكون الديني بداية ومتى يكون هدفا ونهاية.

لكن الخلفية الدينية كمركب ذهني ومسطرة للقراءة والتصنيف تمت بشكل معتدل، اعتدالا لا يمنع من معرفة النقيض على أمل الاستفادة منه، فهو العقل الديني الاسلامي المعتدل الذي يحطم

الأسوار والأسيجة، ويقتحم جميع الحمى، هو العقل الديني الاسلامي كما تمثل عند جمعية العلماء المسلمين.

ولعل المنطلق الديني عند الدكتور "قسوم" يأتي بشكل صريح في كتابه عندما يجعل من احداث الفهم الجديد للنص الاسلامي هدفا اجرائيا لهذا الكتاب، إذ يقول: "فقد اشتمل الكتاب على عينات من النصوص الاسلامية، وعلى نماذج من المفكرين الاسلاميين، وكلها تفتح أمام الدارسين آفاقا جديدة لتصور المناهج المستخدمة والكفيلة بإحداث فهم جديد للنص الاسلامي، وذلك بتخليص الخطاب الديني من الأحكام المسبقة ومن المحاكمات الجاهزة"(18).

ب- المنطلق العقلي والفلسفي:

ويتمثل هذا المنطلق في العودة إلى العقل وتحكيمه عند الدكتور "قسوم"، فهو في قراءته لهذه المشاريع الفكرية يعود إلى العقل ويحضره كأداة لفهم هذه النصوص والتعامل معها، تلك النصوص الفكرية الفلسفية التي يغلب عليها طابع العقل: توظف يقينيات عقلية وتبني منها، مفاهيم فلسفية وتستلزم منها، تجريدات عقلية وتناقشها تارة وتحاكمها تارة أخرى وتبني عليها تارة ثالثة، إن لم تهدمها تارة رابعة، وذلك هو شأن الفلسفة كمبحث عقلي قائم أصلا على التعقل.

بيد أن صاحب المنطلقات الدينية الراكدة، لا يكون بوسعه معرفة خصوصيات العقل، ولا كيف تتم عملية التعقل، ولا مما تتركب الأبنية العقلية، وإنما سلس ذلك للدكتور "قسوم" فقط من حيث أنه بالإضافة إلى المنطلق الديني الموجود لديه، يمتلك الناصية الفلسفية، وذلك عائد أصلا إلى تكوينه الفلسفي، فهو على دراية بالفكر الفلسفي قديمه وحديثه، على دراية بالأنساق الفلسفية العقلية الكبرى: كالنسق الأفلاطوني والرشدي والديكارتي والكانطي ... ولعل النص التالي يبين بوضوح ذلك الترسب الفلسفي في ذهن الدكتور "قسوم" والذي ظل يلاحقه في تعبيره عن قراءته لمشاريع الفكر العربي الاسلامي المعاصر، إذ يقول: "ففي هذا السياق انصبت جهود البحث على احداث ثورة داخل المحتوى والمنهج والمفهوم، فنتج عن ذلك تجديد في النظرية التحليلية النقدية لفكرنا بتسليط الضوء على عملية تحرير العقل من مخاطر تبني ذهنية "القطيع" التي تكرس التبعية المطلقة والعمياء، ومن لعنة تقليد الفكر الإنساني المغزو الفضيع والذي يجسد أزمة في الوجود وأزمة في الإبداع معا"(19).

ج- المنطلق الذرائعي:

الدكتور "قسوم" في قراءته لمشاريع الفكر العربي الاسلامي المعاصر، ظل ينتقل من منهج إلى آخر: من الوصف إلى التأريخ، من التحليل إلى النقد، من التفكيك إلى محاكمة المفاهيم ...،لكن يظل كل ذلك مجرد تقنيات بحثية فرعية أملتها ضرورات القراءة والتقديم وطبيعة النصوص، لكن المنهج الأشمل الذي يطفو فوق ذلك كله، هو ذلك الذي يتحدد من خلال التساؤل: كيف يمكن لهذ المشاريع الفكرية أن تعيد تشكيل الواقع العربي الاسلامي المعاصر، دينا وكسبا؟ كيف يمكن

قراءة وتقديم هذه المشاريع الفكرية بشكل اجرائي أداتي؟ بحيث نجعلها تسهم في تغير الواقع العربي؟

اجرائية على المستوى الفكري، بحيث عمد الدكتور "قسوم" في كتابه إلى تأكيد خاصية التنوع والاختلاف وضرورتها في اي نهضة فكرية، أي كأداة نهضوية نستفيد بها من هذه المشاريع، إذ يقول: "وما حرص منهج الكتاب على ابرازه بالخصوص والتأكيد عليه في التطبيق هو تجسيد مبدأ التنوع الفكري، ضمن أداب الاختلاف، في موضوعية وعملية ومنهجية، بعيدا عن أي انفعال أو عاطفة أو ذاتية ظلت لصيقة بأسلوب فكرنا"(20).

واجرائية على المستوى الفعلي العملي، أن لا يكون هذا الفكر مجرد تنظيرات لا تطبيقات لها، بل ينبغي في هذا الفكر أن يجسد الطموح النهضوي ويبني الغد العربي، فكر ينقد المجتمع من "كبوة السقوط الحضاري".

خاتمة:

كتاب "مدارس الفكر العربي الاسلامي المعاصر" للدكتور "عبد الرزاق قسوم" هو قراءة لأعمال متنوعة وكثيرة، وهذه القراءة علاوة عن كونها توفر مادة ومحتوى فكري: شرح وتلخيص ونقد وتحليل الكثير من النصوص الفكرية العربية الاسلامية المعاصرة، -علاوة عن ذلك- هي طريقة للقراءة، تقدم بشكل عملي تطبيقي للشاكلة السوية لفعل القراءة، فهي تقدم الشروط والأركان الواجب توفرها في صحة القراءة: من شمولية وتريث وموضوعية وتعمق ومحاكمة....، وعدم التسرع في القراءة والقيام بعملية لي الأعناق وملئ الثغرات والقيام بالإسقاطات، ولو كان الكتاب حديثا فقط عن أركان وشروط القراءة الصحيحة لكان مغنيا كافيا، فكيف وهو يقدم ذلك بشكل عملي تطبيقي؟

هذا وتغدو عملية تقديمنا لهذا الكتاب، مجرد قراءة لقراءة،بل هو تطبيق للدرس بعد وعيه واستيعابه، أي أن قراءتنا لهذا العمل هي مجرد تطبيق لما وعيناه من درس كيفية القراءة من خلال هذا الكتاب، وطبعا قد لا يرتسم الدرس بجميع أجزائه في عقل من تلقاه، فقد يقصر في التطبيق.

هذا وناهيك عن أن هذا الكتاب "مدارس الفكر العربي الاسلامي المعاصر" يقدم لنا أساسا جديدا ومختلفا لتصنيف وقراءة مشاريع الفكر العربي المعاصر، اساسا ينضاف إلى الأساس الجغرافي الذي قدمه "أحمد أمين" في كتابه" زعماء الاصلاح"، والأساس التاريخي الذي قدمه الدكتور "حسن حنفي في كتابه "حصار الزمن" عندما قدم المفكرين العرب المعاصرين على شكل أجيال.

المراجع والهوامش:

1- عبد الرزاق قسوم. مدارس الفكر العربي الاسلامي المعاصر: تأملات في المنطلق..والمصب. ط1؛ دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، 1997. ص05

2- نفس المرجع. ص16.

3- نفس المرجع. ص23.

4- نفس المرجع. ص30.

5- نقد العقل الاسلامي لمحمد أركون.

6- نقد العقل العربي لمحمد عابد الجابري.

7- عبد الرزاق قسوم. مرجع سابق. ص40.

8- نفس المرجع.ص47.

9- نفس المرجع. ص 56.

10- نفس المرجع. ص70.

11- نفس المرجع. ص71.

12- نفس المرجع. ص112.

13- نفس المرجع. ص130.

14- نفس المرجع. ص151.

15- نفس المرجع. ص158.

16- نفس المرجع. ص177.

17- نفس المرجع. ص204.

18- نفس المرجع. ص249.

19- نفس المرجع. ص249.

20- نفس المرجع. ص250

د. عياد أحمد

تلمسان

ماي 2014